والاجابة على هذا السؤال هي الطرح الموضوعي، الحقيقي ، لفحوى الخاص في هذا العمل الروائي. وهو الغاية الاساسية لكل ما بحثناه حتى الان .

وقبل ان نحدد القيمة الادبية التي تحظى بها هذه الرواية ، استنتاجا من الكشف عن الخاص فيها ، نعود القهقري الى العهد الذي نشأت فيه الرواية . وهنا لا بد من أن نستعين ببعض البحوث الاكاديمية في مجال القصة والرواية .

فثمة كتاب يدور حول منشأ الرواية في مصر للدكتور عبد المحسن طه بدر ، واخر يبحث في نشأة الرواية عربيا للدكتور محمد يوسف نجم . وثالث للدكتور عبد الرحمن ياغي ، ورابع للدكتور عبد الجواد طاهر حول الرواية العراقية .

وهي كتب تجمع على تصدير ظهور فن الرواية على شكل صدام بين حضارتين : العربية والغربية. فعندما تيقظ وعي المثقف العربي ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، رأى ما لدى الغربيين الوافدين على شكل موجات استعمارية متلاحقة من ادوات تعبيرية ، بعضهم حسبها غريبة كل الغرابة ، فراح يقلدها تعويضا عن نقص رآه في الاداب العربية . والنوع الاخر رأى هذا الفن ماثلا في الاداب العربية ، وبحث عن الشكل المقابل له فوجد في المقامة ما يشاكل الرواية ، فعكف عليها يحملها تجاربه المعاصرة(١٥). وهكذا وجدنا مدرستين متمايزتين في الرواية : مدرسة المقامات، التي تسمرت في الماضي ، وحجبت عن نفسها نسائم المعاصرة(١٦). وقسم انساق وراء الفن الوافد الجديد ، فألف قصصا ، وروايات ظلت في ميزان النقد اشبه باللقيط الذي لا يعرف له أب ولا نسب ، وما على هذا تعود العربي .

وانهارت مدرسة المقامات في عهد حافظ ومعاصريه(١٧).

وازدهرت الرواية المقطوعة النسب على يد سليم البستاني ومعاصريه ، ومن تبعوه .. وظل الحنين قائما لفن روائي يجمع بين هذا الوافد الجديد ، وتلك النسوغ المتلئة بالحياة والعافية في تراثنا الادبي التالد .

واذا اطلق الدارس نظرة بانورامية على فن الرواية يجد ان المحاولات لايجاد هذا النمط قد توقفت ، حتى لقد نسي الكثيرون ان يراعوا وجود هذه الثغرة ... الى ان جاء اميل حبيبي .. فوقع على حدس فني متميز يزج الكل في الواحد ، والقديم بالجديد ، والمحلي بالانساني ، والشرقي بالغربي .. ليعطي خلال هذا الخليط الفني الرفيع نموذجا روائيا ذا نكهة خاصة ، واصالة متفردة ، أما ركائز هذه الاصالة الخاصة فهي :

١ ــ التواصل مع التراث من خلال : الاسلوب اللغوي اولا . فالعبارة لدى اميل حبيبي عبارة مركبة بطريقة قديمة ، تذكرنا باسلوب القصص العتيق ، والمقامات مع فارق بسيط هو التخلص من المحسنات البديعية الثقيلة . ومن خلال الاقتباس المتكرر لمقتطفات من التراث: من الجاحظ، ومن ألف ليلة وليلة ، ومن شعر المتنبي ، وأبي نواس .. وسواهما . ومن خلال المزج بين الماضي والحاضر بالوسائل الفنية التي سبق وصفها .

٢ ــ الشكل الخارجي : فقد اتخذ اميل حبيبي لروايته شكل المقامة ، التي تبدأ على نمط معين ، ويكون لها بطل ساذج . وكلما ذكر الكاتب، عبارة كتب الي سعيد أبو النحس قال .. ذكرنا بقول الهمذاني في مستهل كل مقامة : « حدثني عيسى بن هشام : قال ... » .

٣ ــ السخرية : فالهزل الذي يمزجه اميل حبيبي بالجد ، والطرافة التي يسكبها من خلال المعاناة والمرارة ، تذكرنا على نحو ما بطريقة الجاحظ في التعبير عن افكاره الجادة ، العميقة ، باسلوب هزلي ساخر ، وبغيره من الاساليب المعاصرة كأسلوب مارون عبود مثلا(١٨).

٤ ــ الاخلاص للمحلية : فاميل حبيبي يرى ان الوصول الى العالمية لا يتم الا باستيعاب كل ما هو متميز في البيئة المحلية . ونحن الذين ولدنا خارج فلسطين ، وعشنا خارج فلسطين ، لا نجد كتابا يقوضنا على ما فاتنا من زمن لم نقضه فيها غير رواية اميل حبيبي . فمن خلالها نتلمس التراب الفلسطيني. ونستنشق الهواء الفلسطيني، ونرى البحر والشاطىء الفلسطيني . ونتحسس صلابة الاسوار في عكا ، وجمال المراكب في ميناء حيفا ، وجلال الحواري العتيقة في القدس ، ومهابة الناصرة التاريخية .

وهنا يطرح اميل حبيبي فهما جديدا للادب